التعريب (١)

أكثر القائلين بتطبيق "سياسة الباب المفتوح" على اللغة العربية من ذكر جمود امتنا واشتغالها عن الجواهر بالاعراض ووقوفها موقف المستضعفين امام الامم الغربية ونعوا علينا تحرجنا قبول الدخيل في لغتنا ورمونا بالرجوع الى الوراء والنفور من كل جديد والوقوف عند حد ما أملته الزمان ومخالفة سنة اللغات الحية صاحبة الحركة الدائمة التي قدر لها ان ينتفعوا بكل ما خلقه الله الى آخر ما ألقوا به من القضايا الخطابية بقصد التأثير في افكار السامعين حتى تخيلوا ان الكلم الاعجمية واجبة الاستعمال في اللغة العربية حرصاً على الزمن ان يضيع في ايجاد الفاظ عربية تسد مسدها وان قواعد الاقتصاد السياسي تقضي بصرفه في اختراع آلة حربية او معمل صناعي او مصرف مالي . ولقد كدت من شدة التأثير امسك عن الكلام خيفة ان اضيع عليكم ساعة يمكنكم فيها اختراع بندقية جديد او آلة للطيران او علاج للسرطان

مسكينة الامة المستضعفة : لا تدري من اين تؤتى ولا تعرف لتأخرها علة فتذهب مع كل ذاهب وتمشي وراء كل حاطب

ظننا النيل سيب رخاوته فعدلنا عنهُ الى الآبار فانشطنا . وخلنا الازياء الواسعة مانعتنا عن الحركة فاستبدلنا بها ازياء ضيقة فما عدونا . وحسبنا امتعاد السيارات والدراجات يوصلنا الى المدنية فاقتعدنا وما استفدنا . وزعمنا ملاهي التمثيل اقرب سبيل لتمدننا . وعددنا الفنارج (البالو) معارج فما عرجنا . وغيرنا العمائم بالقلانس والدور بالتصدر وظهور الصافنات بسطون العربات فما اخرجنا كل ذلك عما نحن فيهِ من الاستضعاف ولا مما بنا الى مراقي الالمان والانكليز واليابان

ان لارتفاع الامم وانحطاطها اسبابًا خاض فيها الحكماء وافاض في بيانها العلماء وليس المقام الآن مقام ذكرها وان المسألة التي نحن بصددها مسألة نقلية يرجع فيها الى كتب اللغة والادب وليس لاحد ان يأخذ فيها بالهوى او يسترسل مع الوجدان او يقتصر فيها على مجرد الاستقباح والاستحسان . فكما لا يجوز في التاريخ ان تنكروا غلبة اليابان للروس محتجين بان الصغير لا يغلب الكبير لا يجوز في العربية ان تنصبوا الفاعل وتقدموا خبر ان على اسمها

(١) خطبة القاها الفاضل حفني بك ناصف رئيس نادي دار العلوم في مسألة التعريب

احتجاجاً بان المعنى لا يتغير . ولا ان نقولوا ما الفرق بيننا وبين العرب الاولى حتى جاز لهم وضع الفاظ مقتضبة وتعريب كلمات اعجمية والشذوذ عن القياس واستنع علينا أليسوا رجالاً ونحن رجال

ليس لاحد ان يقول ذلك الاَّ اذا خرج من الربقة وخلع العذار ورضي بان يكون طليقاً لا يتقيد بشيء . المسألة منصوصة في الاسفار فمن شاء ان يخرق الاجماع ولا يقصر شيئاً على السماع ويستريح من عناء الدروس فليصنع ما شاء فليس عندنا ما يرغمهُ على اتباع الجماعة ولا فائدة في الجدال معهُ . واذا شاء ان يتبع المنصوص فها هو بيانهُ

اتفق العلماء على ان اللغة العربية كانت لسان عاد وثمود وأُميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار من اولاد إرَم بن سام

واول تنقيح دخلها كان بعمل يعرب بن قحطان رأس العرب العاربة وجرى اولادهُ على لغتهِ في انحاء اليمن كلها ثم تفرق جماعة منهم في نجد والحجاز وتهامة والشام والحيرة

ولما اصهر اسماعيل بن ابرهيم عليهما السلام الى قبيلة جرهم ادخل تنقيحاً ثانياً في اللغة وجرى على اثرهِ القبائل من اولادهِ كربيعة ومضر وكنانة ونزار وقيس وضبه

والتنقيح الثالث ادخلتهُ قريش بالتدريج اقتباساً من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم في كل عام وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوماً منها ثلاثة ايام بسوق ذي المجاز وسبعة بسوق مجنة وثلاثون بسوق عكاظ وعشرة في مناسك الحج

والتنقيح الرابع هو اختيار علماء المصرين البصرة والكوفة (نقلة اللغة في عصر الامويين والعباسيين) فقد قصروا اختيارهم على ست قبائل من صميم العرب لم تخالط بغيرها وهم قيس عيلان واسد وهذيل وبعض تميم وبعض كنانة وبعض طي ولم يأخذوا عن لخم وجذام لمخالطتهم القبط اهل مصر . ولا عن قضاعة وغسان واياد لمخالطتهم اهل الشام والروم واكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية . ولا عن تغلب لانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان . ولا عن بكر لمجاورتهم النبط والفرس . ولا عن عبد القيس وازد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين الهنديين والفرس . ولا عن اهل اليمن (حمير وهمدان وخولان والازد) لمخالطتهم الحبشة والزنج والهنديين . ولا عن بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف والطائف لمخالطتهم تجار اليمن عندهم . ولا عن حاضرة الحجاز وقت نقل اللغة لفساد لغتها بالاختلاط

وعدوا لغة قريش اصح اللغات العربية لانها خالية عن عنعنة تميم وهي ابدال الهمزة عيناً نحو عنّت وعنك اي انت وانك . وعن تلتلة بهراء وهي كسر اول المضارع نحو تِلعب

وتلهو . وعن كشكشة ربيعة ومضر وهي الحاق سين بعد كاف المخاطب نحو رايتكس . وعن كسكسة هوازن وهي الحاق شين بعد كاف المخاطبة نحو رأيتكش وعن تحفحفة هذيل وهي قلب الحاء عينا نحو عتى اي حتى . وعن وكم ربيعة وهي كسر كاف الخطاب بعد الياء الساكنة او الكسرة نحو عليكم وبكم . وعن وهم بني كلب وهي كسر هاء الغيبة اذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة نحو عنهم وبينهم وعن جحجحة قضاعة وهي قلب الياء الاخيرة جيماً نحو الساعج يدعج اي الساعي يدعي . وعن وتم اهل اليمن وهو قلب السين المتطرفة تاء نحو الناتم اي الناس . وعن الاستنطاء في لغة سعد والازد وقيس وهو قلب العين الساكنة نوناً قبل الطاء نحو انطى اي اعطى . وعن شنشنة اليمن وهي قلب الكاف شيناً نحو لبيش اللهم لبيش . وعن طمطمانية الشحر وعمان وهي حذف الالف في نحو مشاءالله اي ما شاء . وعن طنطانية حمير وهي جعل أل " ام " نحو طاب امهواء اي الهواء وعن غمغمة قضاعة وهي اخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

ولم ينظر نقلة اللغة الى لغة كل قبيلة على حدتها بل جمعوا الالفاظ التي يتكلم بها كل القبائل التي عولوا على الاخذ عنها وجعلوها لغة واحدة مقابل اللغة الاعجمية لا يخطئ المتكلم الا اذا خرج عنها كلها فلفظ المدية لغة دوس بطن من الازد ولفظ السكين لغة قريش فنقل الائمة اللفظين واباحوا لكل انسان ان يتكلم بايهما شاء ولو لم يوجد في العرب من تكلم بهما معاً ومن هنا جاء الترادف في اللغة والاشتراك اللفظي ولو جمعوا لغة كل حي من العرب على حدتها لتكرر العمل وطال الزمن

ثم نظروا بعد ذلك الى المفردات فما كان منها كثير الدوران على السنة العرب عدوه فصيحاً وما كان قليل الدوران على السنتهم عدوه غريباً ووحشياً يعد استعماله مخلاً بالفصاحة ولو كان معروفاً عند المخاطبين

واستخرجوا من استعمالات العرب قواعد تتعلق باحوال اواخر الكلم وقواعد تتعلق باقي احوالها وسموها علم النحو والصرف وجعلوا لبعض تلك القواعد قيوداً واستثناءات حتى يكون الاستعمال الكثير مضبوطاً بقوانين تحتذى عند القياس وما شذ عن ذلك جعلوه سماعياً يقبل من العرب ولا يقبل من المولد

وكانوا شديدي الحرص على بيان السماعي والقياسي فاذا لم يكن اللفظ (مادة او هيئة) قد سمع من العرب منعوه بتاتاً وشنعوا على مستعمله

ولاجل ان يعرف السامع مقدار عناية بهم بالمسموع من العرب ومقدار الانحطاط الذي

كان يلحق بين يحيى ومنهم اروي تلك قصة وفود سيبويه على يحيى بن خالد البرمكي ببغداد فقد عقد يحيى مجلساً جمع فيه بين سيبويه رئيس نحاة البصرة وبين علي الكسائي رئيس نحاة الكوفة فقال لهُ الكسائي تسألني او اسألك فقال سيبويه سل انت فسألهُ الكسائي عن قول العرب "قد كنت اظن ان العقرب اشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي" ايجوز فاذا هو اياها. فقال سيبويه لا يجوز النصب فقال الكسائي العرب ترفع ذلك وتنصبهُ فقال يحيى لقد اختلفتما وانتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما فقال لهُ الكسائي هذه العرب ببابك قد سمع منهم اهل البلدين فيحضرون ويسألون. فقال يحيى وجعفر انصفت وامرا باحضار اعرابي من اهل البادية وسألوهُ فقال "القول قول الكسائي" فقال سيبويه ليحيى مرهُ ان ينطق بذلك فان لسانهُ لا يطاوعهُ فاكتفى المجلس بحكم الاعرابي وخجل سيبويه وسافر بعد ذلك الى فارس فاقام بها حتى مات وكانت هذه المسألة سبب علتهِ وكانت وفاتهُ في سنة ١٨٠ وعمرهُ ٣٢ وهكذا كانت عادة علماء البلدين متى اختلفوا في امر تلوهُ عند البدو وتسمعوهُ منهم

وعرّفوا المعرّب بانهُ الاسم الاعجمي الذي فاهت بهِ العرب الموثوق بعربيتهم فاذا فاه بهِ غير العربي سمي مولداً وقد تبعهم في ذلك كل من كتب في اللغة كاصحاب الصحاح والقاموس والمحكم والعباب. واجمع العلماء على ان لا يستشهد في اللغة والصرف والنحو الاَّ بكلام العرب ولا يجوز الاستشهاد بكلام المولدين الاَّ في علوم البلاغة

واجازوا استعمال الكلم في غير ما وضعت لهُ متى وجدت مناسبة بين المعنى الاصلي والمعنى المراد وقامت قرينة تمنع ارادة المعنى الاصلي وحصروا تلك المناسبات بالاستقراء وسموها علاقات وهي

المشابهة — نحو فاه الخطيب بالدرر اي الكلمات الحسان
والسببية — نحو رعينا الغيث اي الكلأ
والمسببية — نحو امطرت السماء نباتاً اي ماء
والكلية — نحو يجعلون اصابعهم في آذانهم
والجزئية — نحو بث الامير العيون اي الجواسيس
والحالية — نحو ففي رحمة الله هم فيها خالدون اي الجنة
والمحلية — نحو سال الوادي وجرى الميزاب اي ماؤهُ
واللازمية — كاطلاق الحرارة على النار
والملزومية — نحو دخلت الشمس من الكوة اي ضوءها

والاطلاق — نحو لا صلاة لجار المسجد الاَّ في المسجد اي لا صلاة كاملة
والتقييد — كاطلاق الشفر على شفة الانسان والشفر للبعير كالشفة للانسان
والعموم — كاطلاق الابيض والاحمر على السيف والرمح والدابة على ذات الاربع
والخصوص — كاطلاق اسم الشخص على القبيلة نحو تميم وقريش وربيعة
والبدلية — نحو في ملك فلان الف دينار اي مثلها يساوي الفًا
والمبدلية — نحو اكلت دمًا ان لم ارعك بضرة اي اكلت دية
واعتبار ما كان — نحو وآتوا اليتامى اموالهم اي الذين كانوا يتامى
واعتبار ما يكون — نحو اراني اعصر خمرًا اي عنبًا
والدالية — نحو فهمت الكتاب اي معناهُ
والمدلولية — نحو قرأت معناهُ مشفوعًا بتقبيل اي قرأت لفظهُ
والمجاورة — نحو شربت من الراوية اي المزادة المجاورة للجمل وقد تكون المجاورة في الذكر فقط كما في المشاكلة نحو اطبخوا لي جبةً وقميصًا
والآلية — نحو واجعل لي لسان صدق اي ذكرًا حسنًا صادقًا
والتعلق — كاطلاق لفظ المصدر على الفاعل او المفعول كشاهد عدل وهذا خلق الله
والشرطية — نحو وما كان الله ليضيع ايمانكم اي صلاتكم
والمصدرية — نحو فرجعوا الى انفسهم اي آرائهم
والظرفية — نحو يد الله فوق ايديهم اي قدرته
والتضاد — كاطلاق البصير على الاعمى

ومتى اشتهر اللفظ في معناهُ المجازي صار حقيقة عرفية لهُ حكم الحقيقة الوضعية

وقد صارت اللغة بهذا التنقيح الاخير لغة العرب عامة لا لغة قبيلة بعينها فأي لفظ نطقت به فاتت مصيب واي استعمال جريت عليهِ فلست بمخطئهِ ما دمت لم تخرج عن المنقول واية علاقة صادفتك من العلاقات السالفة الذكر توصلك الى تسمية ما لم تسمه العرب فلست مقيدًا بلفظ اعجمي ولا بلهجة حي معين وصرت بذلك بعيدًا عن الخطاء واسع المجال في النثر والنظم والتقلب في الاساليب الانشائية تصول وتجول وتتهم وتجد حيما يسمو اليهِ استعدادك وتصل اليهِ درجتك من الاطلاع وتمكنك منهُ بضاعتك فلك ان تقول المدية كما تقول دوس وان تقول السكين كما تقول قريش وان تنطق كلمة "حيث" بتسع لغات ولفظ "ياربي" بست لغات وتركيب «يادي بدهِ» بثمانية عشر وجهًا وان ترفع

الخبر وتنصبهُ في غير ما هذا بشرًا وان تطلق الاسد على السبع والشجاع والعين على الباصرة والذهب والجاسوس وتصرّح وتعمّي حيث تحتاج لذلك وتنقل الى العربية كل ما فهمتهُ من اللغات الاخرى

وقد وقع جاسوس عربي في يد العدوّ فحبسوهُ والزموهُ ان يكتب كتابًا الى ملكهِ يحملهُ فيهِ على مداهمتهم ويوهمهُ بقلة عددهم وعُددهم غشًّا وتغريرًا فكتب الى الملك كتابًا قال فيهِ :

اما بعد فقد احطت علمًا بالقوم . واصبحت مستريحًا من السعي في تعرف احوالهم . واني قد استضعفتهم بالنسبة اليكم وقد كنت اعهد في اخلاق الملك المهلة بالامور والتثبت في العاقبة فقد تحققت انكم الفئة القالبة باذن الله . ولقد رأيت من احوال القوم ما يطيب بهِ قلب الملك نصحتُ فدع ربيك ودع مهلك والسلام

وسلم الكتاب الى العدو فارسلوهُ الى الملك بعد ما اطلعوا عليهِ فتفطن الملك لما اراد الكاتب وقال لحاشيتهِ ان الجاسوس وقع في الاسر فاصبح مستريحًا من السعي وانهُ رآهم اضعافنا واننا قليل بالنسبة لهم اذ لمح بآية (كم من فئة قليلة) ولفتني الى الاناة اذ جعلها عادة لي واراد قلب حروف الجملة الاخيرة فتكون (كلهم عدوٌّ كبيرٌ عدّ فتحصن)

على هذا استقرت اللغة العربية وتم احكامها وحصرت مفرداتها الاصلية وقوانينها وابيح استعمال مفرداتها في غير ما وضعت لهُ عند الاحتياج بشرط العلاقة والقرينة وانتهت ادوار التنقيح فيها فلم يبقَ الاَّ استظهارها والعمل بها . وقد اغتبطت الامة العربية بذلك وعكفت على العمل بهِ قرونًا قضت فيها لبانة العلم والسياسة وتفرغت للفتوح والاستعمار وملأت طباق الارض بالتصانيف في الشرائع والحكمة وكل ما كان على وجه الارض من العلوم فاثارت الخافقين ونشرت المدنية في الدنيا . ولما ضعف امرهم ورثهم الغربيون في حكمتهم واخذوها عنهم واضافوا اليها ما تجدد من الصناعات والفنون ولا يزال الافرنج يدأبون في اقتناء الكتب العربية ويستخرجون منها من الفوائد ما لم يكن في حسباننا ولكل مجتهد نصيب

هذا ما حضرني من النصوص المحثوية عليها كتب العرب . المتضافر عليها من أئمة الادب فمن شاء فليؤمن بها ومن شاء فليكفر بها فقد تبين الرشد من الغي

ولما قصدت هم المخالفين وانتشر فساد اللغة مادة وقوانين رأى فريق من الناس ان يكفونا مؤنة التحصيل فبدوا الى فتح ثغور اللغة العربية للدخيل من الالفاظ وطفقوا يحسنون صنيعهم بأقيسة خطابية وجدلية لا تغني من الحق شيئًا

فقالوا اولاً : ان العرب اخذوا الفاظاً من الاعاجم في اطوار تنقيح العربية واستعملوها الفصحاء ورد منها كثير في القرآن والاحاديث فما لنا لا نشيء مذهباً خاصاً في التنقيح وفاتهم ان ما اخذه العرب قليل جداً بالنسبة الى ما نبذوه ونادر بالاضافة الى مادة لغتهم الاصلية والقليل النادر لا يقاس عليه فاذا فتحنا اليوم باب القياس في مادة اللغة فتحنا عدا بالاولى في هيئتها اي في الصرف والنحو فنقيس على ما ورد شذوذاً عن العرب اذ ليست المادة باقل خطورة من الهيئة ولا الجوهر بادنى احتراماً من العرض فننصب خبر المبتدا وخبر ان ونشتق من الجوامد كلها ونميل الالف حيثما وجدت ونستخرج من كل فعل ثلاثي مزيدات ونستعمل الزيادة لكل المعاني وبالجملة نجعل عالي اللغة العربية سافلها ونحدث فيها الاحداث الهائلة فتتبدل فيها الالسنة وتفقد بعد قليل من الزمن مع ان « اصحاب اللغات الحية » الذين يريدون ان يشبهوا بهم لم يرضوا ان يتركوا عاداتهم من الكلام والكتابة ولو كانت خطأ فلا يزالون يقولون في ٧٥ سنة وخمسة عشر وفي ٩٨ اربع عشريات وثمانية عشر ولا يزالون يكتبون جملة حروف في الكلمة لا ينطق بشيء منها ويغوصون بحروف لا يكتب منها شيء

وقالوا ثانياً : انهُ يجب ان يكون لكل مدلول دالٌ خاص به لا يدل على غيره ابداً وتكون دلالتهُ بنفسه لا بعلاقة اخرى وان تسمية المحدثات بلفظ عربي مهما كانت علاقتهُ يوقع في الاشتراك ويزيدنا آلاماً الى آلامنا : وغرضهم بذلك منع الاشتراك اللفظي بالمرة او عدم زيادته وفاتهم ان الاشتراك اللفظي واقع لا محالة في جميع اللغات لان الفاظ كل لغة محصورة والمعاني غير محصورة فلو وزعت الالفاظ على المعاني وجب المصير الى الاشتراك حتماً ولا ضرر من استعماله مع القرينة . ففي الهندسة مثلاً تستعمل الزاوية والعمود والسطح والهرم والكرة والضلع ولا يخطر في البال شيء من معانيها القديمة . وفي الطبيعة والكيميا تستعمل العدسة والملح والبلورات ولا تحس باصل معناها . وفي القوانين تستعمل وضع اليد وسحب الورقة وحبس العين والقذف والضبط والربط ولا يجيء في خاطر معناهُ الاصلي والذي يسمع جملة « سيارة الامير سبقت القطار » لا يتوهم القافلة ولا الجمال فاين هي الآلام التي تخشون من زيادتها ؟ ومن منكم يمكنهُ ان يتكلم كلاماً خالياً من المشترك والمجاز ؟ انا اراهنكم على كتابة عشرة اسطر باي لغة شئتم في وصف حادثة من الحوادث ذات البال فمن قدر على اخلائها من المجاز والمشترك فلهُ مني عشرة دنانير وامهلكم شهراً والحقيقة ان هذه الآلام آلام وهمية توجد عند من يريد ان يتألم منها

وقالوا ثالثاً : ان دلالة الكلم الاعجمية اصرح لانها تدل على صنف مخصوص بخلاف

الكلم العربية فانها في الغالب تكون عامة : وفاتهم ان الاصطلاح يجعل العام خاصًا والمطلق مقيدًا فالنسافة والبارجة والذارعة والشطاط لا عموم فيها بعد الاصطلاح عليها وغلبة الاسمية على الوصفية معروفة في اللغات قديمًا وحديثًا فيقولون سيف ابيض وسرعف وهندي وبماني وفي الرمح اسمر ولدن وسمهري ورديني وكلها اوصاف غلبت عليها الاسمية

وقالوا رابعًا : ان التعريب اسهل من انتقاء اللفظ العربي واستعمال الاعجمي اخف على السمع فاذا قلت للبدال « اعطني قدحًا من الجمة » اشمأز منك ومجّ السامعون بخلاف « البيرا » : وفاتهم ان هذه الصعوبة تزول بعد الاهتداء الى الكلمة العربية والاصطلاح عليها والالحاح في استعمالها لفظًا وكتابة على ان هذه الصعوبة انما تكون على الاشخاص الكلفين باستخراج الكلم بخلاف الذين يتلقونها جديدًا فانهم يجدونها بدون عناء كالذي يلبس الثوب لا يحس بعناء حائكه وخائطه وقارىء الصحيفة لا يحس بعناء محررها وجامع حروفها وطابعها . ولا بد من قوم يعانون الاعمال وآخرون ينتفعون بها ونحن لا نكلف افراد الامة بالاشتغال بنا في انتقاء الالفاظ بل يكفي ان يتعب منا فريق في هذا الامر مقابل تعب الآخرين في اعمال اخرى على قاعدة التبادل المدني . اما استهزاء العامة فلا يمنعنا عن العمل لانا لا نعمل لهم بل للخاصة والنشء الجديد الذين يتعلمون في المدارس . وخالي الذهن يحفظ ما يلقى اليه سواء كان اللفظ الذي يحفظهُ عربيًا او اعجميًا . واني اذكركم اننا كنا نستعمل كلمة قومسيون وتومبنية وجورنال وغازيته وافوكاتو وكوليرا ووابور وقنصل جنرال ولما ابتدأ الصحافيون يغيرونها بلجنة وصحيفة ومحام ووباء وقطار ومعتمد كنا نتقززها فلما الحوا في استعمالها زال التقزز شيئًا فشيئًا حتى عدنا الكلمات الاولى فحازاهم الله عن العربية خيرًا . فلمَ لا يعمل المحدثون من الصحافيين مثل ما عمل الاقدمون ؟ ولماذا لا يحذر مترجمو اليوم حذو مترجمي امس ؟ ولمَ لا نساعد هؤلاء وهؤلاء على اداء ذلك الواجب ؟

وقالوا خامسًا : ليس لنا ان نتمسك بالقديم لمجرد قدمهِ : فنقول لهم وليس لنا ان نبذ القديم لمجرد قدمهِ فما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ والواجب على من رأى المصلحة في القديم ان لا يتركهُ ما لم تقم الادلة على اصلحية الجديد وقد جربنا القديم مئات من السنين فقام بالكفاية ولم نرَ للآن منفعة في الالفاظ الجديدة بل الضرر محقق لانا لو فتحنا الباب لدخول الجديد لاستحكم على الخالفين فهم كل المؤلفات منذ الف سنة الى الآن وانقطع الاتصال بين السابق واللاحق وضاع على المتأخرين تراث اسلافهم المتقدمين

وبعد فاني لم افهم للآن وجهاً لتشبث بعض الاعجمي فاما ان نكون مصابين بمرض الشعوبية وهو تفضيل العجم على العرب واما ان نكون لاستضعافنا مقلدين الغالب كما قال ابن خلدون . واما ان يكون في طباعنا انحلاد الى الراحة والسكون فلا نريد ان نعاني اعمالاً جديدة لم تتعودها فتجندنا هذه الطباع الى تحسين ما نحن عليه ونقول بالتعريب لاننا يمكننا ان نعرب كل يوم الف كلة ولا نجد في الشهر عشرين كلة عربية فيقرر كل منا ان ما وصل اليه هو منتهى الكمال وان ما يزيد عن ذلك يحسب من التقعر والتعقيق ولا يريد ان يعترف بكمال بعد الحد الذي وقف عنده فيجعل على نفسه النقص . ان لم يكن هذا ولا ذاك فما سبب هذا التشبث يا ترى ؟ لقد وعيت كل ما سبق من الادلة فلم اجد فيها برهاناً قاطعاً حمود قريحتي ضرب بيني وبين الحقيقة حجاباً مستوراً

وقد نشأ من التساهل في حياطة اللسان العربي ان تطرق الفساد الى مادته وهيئته وتولد عنه لسان آخر لا هو بالعربي ولا هو بالاعجمي وسماه الناس باللغة العامية او الدارجة وهو المستعمل هذا العهد في بصر والشام والعراق وجزيرة العرب والمغرب والسودان لا يتكلمون بغيره وان كانوا لا يزالون يكتبون بالعربية الفصحى او ما يقرب منها

وترى الطفل يتعلم العامية في اقل من خمس سنين ولا يتعلم الفصحى في اقل من عشر والسبب في ذلك ظاهر وهو انه في اول امره لا يسمع غير العامية ولا يتكلم بغيرها فهو اينما سار وحيثما ذهب مشتغل بها فترسخ في ذهنه رسوخ الفرنسية في اذهان اطفال الفرنسيس والانكليزية في اذهان اطفال الانكليز وليس الحال كذلك في ابان تعلم لغة الكتابة . ولو فرضنا صبياً نشأ في بلد يتكلم اهله بالعربية الفصحى بالسليقة وبعد سن مخصوص يتعلمون العامية ويستعملونها في الكتابة فقط لا نعكس معه الحال وتعلم الفصحى في اقل من خمس سنين وتعلم العامية في اقل من عشر . فليس في طبيعة اللسان العربي الصحيح شيء من الصعوبة وانما في طريقة التلقين وبيئة التعليم

وعلى كل حال فالجمع بين العامية والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة كان يفنى عنها خمس لو اقتصر المتعلم على احداها ويضيع على كل متعلم عشر سنين من عمره فاذا تحققت الآمال وصار التعليم اجبارياً فكم تخسر الامة كل سنة من اعمار افرادها ؟ . فاذا اخذنا المعدل السنوي للمواليد وهو ٤٧٠٠٠٠ وطرحنا منه معدل وفيات الاطفال الى سن العشرة (ونفرض انه النصف) ٢٣٥٠٠٠ يكون عدد الباقين ٢٣٥٠٠٠ نفسية في عشرة اعوام وهي مقدار ما يخسر كل واحد فتكون النتيجة ان الامة تخسر في كل عام

عمل شخص واحد في ٢٣٥٠٠٠٠٠ سنة وبعبارة اخرى بفوتها ربح زراعة ١٢٧٥٠٠٠٠ فدان على فرض ان الفدان يزرعة الفدان وهي خسارة لا يحسن السكوت عليها . فيا ضيعة الاعمار تمشي سبهللا

وقد استنكر الصبر على هذه الخسارة جماعة من الاقتصاديين فاتفقوا على وجوب الاقتصار على تعلم احدى اللغتين واختلفوا في تعيينها فقال فريق منهم يقتصر على العامية ومنهم المهندس الشهير ويلكوكس والقاضي الكبير ويلور . وقال الفريق الآخر ومنهم العالم الشهير والمربي الكبير يعقوب ارتين باشا بالاقتصار على الفصحى

واورد على الاول — (١) ان لكل قطر عامية مخصوصة بل لكل مديرية لهجة معينة فاذا رجحنا لغة اقليم تحكمنا منا تكون قد الزمنا سكان الاقاليم الاخرى بتعلم لغة ذلك الاقليم وعناؤهم في ذلك لا ينقص عن عناء تعلم العربية الفصحى بل الفصحى اسهل لان كل شيء فيها قد ضبط ونقح ووضعت له كتب متعددة . (٢) وان العامية في البلد الواحد تتبدل بتبدل العصور فلكل زمان الفاظ تدخل مع اصحاب القوة ولذلك ترى في لغة مصر مفردات من الرومية والكردية والتركية والشركسية والفرنسية والانكليزية . (٣) وان الزام العامية يحدث حجابا كثيفا دون الاستنباط من القرآن والحديث والمأثور من كلام السلف فتذهب اعمال الاولين هباء وتقع الخسارة على المسلمين وغيرهم ممن يستخرجون كنوز العلوم من بطون الكتب العربية القديمة ولولا كتب العرب ما اشرق على اوربا ذلك النور الساطع وبالجملة تنقطع الصلة بين الازمنة والامكنة العربية ويحرم ابن هذا الزمان من ثمار افكار السابقين وقاطن هذا المكان من تبادل آراء المعاصرين من ابناء اللغة الواحدة فلا جرم كان من المتعين نبذ الرأي الويلكوكسي والاخذ بالمذهب الارتيني

وخلاصة هذا المذهب ان تترك العامة يتكلمون بما يريدون وتدرب التلاميذ في المدارس على التكلم بالفصحى ويجب اليهم التحاور بها كلما اجتمع لفيف منهم حتى ترسخ ليهم ملكتها وتملك السنتهم دربتها ويكون اخذهم بالتمرين تدريجيا يطبقون على ما عرفوه ويكملون محاورتهم بالعامية في ما لم يعرفوه وكلما زادت درجتهم في التعليم زادت قوتهم في التطبيق الى ان تهجر العامية وتحل الفصحى محلها

فاذا ضم الى ذلك مطالعة الصحف والمجلات العربية وسماع الخطب العلمية في الاندية العربية والتردد على معاهد العظات ومشاهد التمثيلات ومواقف المرافعات وتعليم الفتيات واحتذاء اساليب المنشئين وطبع كتب المبرزين فان اللغة العامية تنقرض في اقل من عشرين عاما

وتخلفها اللغة الصحيحة ويرجع اللسان العربي الى عصر مجده وايام سؤدده

ولقد مر ذلك العربي الكبير منذ عشرين سنة بأولاء تلاميذ مدارس يتكلمون بالعربية الفصحى ما داموا تحت نظر معلميهم وبعد يعد هذا الامر عدتهُ وعتادهُ وسألني رأيي في ذلك وكنت معلماً في مدرسة الحقوق فقلت لهُ ان الامر ميسور والخطب سهل فطلب اليَّ تجربة ذلك قبل ان يصدر الاوامر ففعلت فعم وكرامة ولم يمضِ شهر حتى دعوتهُ لشهود التجربة مع من شاء من المنتشين فاسفرت التجربة عن نجاح باهر وارتقاء ظاهر فعمم على امضاء عزيمته لولا احتجاج فريق من المعلمين بل نفر من العاجزين بان التطبيق متعذر قبل حفظ اللغة واتقان القواعد ولولا التوكؤ على هذه المغالطة لكانت العامية الآن في خبر كاد ان لم تكن في خبر كان

والذي يسمع كلام الباحثين الاصليين والمتصرين لما يخال ان بين الفريقين حرباً عواناً وخلافاً ما بعدهُ اتفاق . ومنشأ هذا الافتراق الذي حي وطيسهُ واحتدم اوارهُ ان ادلة الفريق الاول تنتج اكثر من المدعى ويجر التسليم بها الى اذهاب اللغة العربية والاتيان بخلق جديد ولولا ذلك لكان الخلاف نظرياً لا يترتب عليهِ اثر ويتضح ذلك اذا حددنا موضع النزاع وحصرناهُ في الدائرة التي يجب حصرهُ فيها . واحسن طريق لتحديد سرد مواطن الوفاق حتى تحاماها اذا التقى الجمعان والبكم البيان

(١) تنقسم اولاً اللغة العربية الى لغتين لغة عامية ولغة فصحى فالعامية لا يمكن ان تكون محل نزاع لان الباحث الاول يقول بنقل اللفظ الاعجمي ووضعهِ في القوالب العربية والثاني يقول بعدم الخروج عما ورد فمحل النزاع اذاً اللغة الفصحى

(٢) ثم تنقسم اللغة الفصحى الى اجزائها : حرف وفعل واسم . فالحرف لا يمكن ان يكون محل النزاع لان ما وجد منهُ كاف لحاجة اللغة فلا ضرورة لزيادة نحو ليس . ولو . واذ . لوجود نعم . ولا . وحرف العطف

والفعل كذلك غير محتاج للزيد فلا باعث لزيادة نحو " جون " و " كم " لوجود ما يماثلها في العربية . وقد وقع في كلام الباحث الاول ما يفهم منهُ رغبتهُ في زيادة افعال تشتق من الاسماء الاعجمية كأترم وقبل ونبس وفعل ذلك فرط منهُ اثناء احتدام الجدال والاَّ فما وجه تفضيل الاعجمي على العربي ولم يقل احد بجواز ابغل واحمر وافرس وانبغل والحمار والفرس اعرق في العربية من اترام اللهمَّ الاَّ ان يكون وجه التفضيل شدة السرعة وعندنا قاعدة مذهبية نبني عليها وهي انهُ لا يصار الى التعريب الاَّ اذا انبأت الحاجة اليهِ

ولا حاجة الى اثرم كما لا حاجة الى افعل لامكان التعبير بركب الترام لوصفنا بقبول كلة ترام فمحل النزاع اذاً الاسم

(٣) ثم نقسم الاسم الى ما ينوب عن الفعل كشتان وهي وصه والى ما لا ينوب عن الفعل . والاول كالفعل لا حاجة الى الزيادة فيه . فمحل النزاع اذاً الثاني

(٤) ثم نقسم ما لا ينوب عن الفعل الى مشتق وجامد . فالمشتقات في العربية كثيرة وهي اصرح من نظائرها في اللغات الاخرى . فالنزاع في الجامد

(٥) ثم نقسم الجامد الى اسم معنى واسم ذات . فاسماء المعاني كثيرة جداً في العربية حتى عدها الباحث الاول ثروة واسعة . فالنزاع في اسم الذات

(٦) ثم نقسم اسم الذات الى ما وضع لعين بلا واسطة وهو العلم . والى ما وضع لعين بواسطة ملازمة وهو الضمير واسم الاشارة والاسم الموصول . والى ما وضع لغير معين وهو اسم الجنس

فالعلم يشمل اسامي الاناسي والبلاد والجبال والانهار والبحار والامم والاقاليم وما له شأن خاص من غيرها . والاتفاق على انها لا تخص لغة معينة الا باعتبار معناها الاصلي قبل العلمية وانها تبقى على ما وضعت لها واضعوها الا لضرورة

والضرورة اما ان تكون بوجود حروف اعجمية لا نظير لها في العربية كالحرف پ الذي بين الباء والفاء مثل پاريس والحرف ڤ الذي بين الفاء والواو مثل ڤينا والحرف ڜ الذي بين الجيم والكاف والكاف والعين مثل انكلترا وبعبارة اخرى كجيم القاهرة او قاف الصعيد وهي قاف تميم . والحرف ژ الذي بين الجيم العربية والياء وبعبارة اخرى كجيم المغاربة مثل جابون والحرف الالماني ڟ الذي بين الطاء والشين مثل منخن او منشن فيبدل الحرف الاعجمي بحرف يقاربه

واما ان تكون بوجود حركات اعجمية لا نظير لها في العربية كالحركة ٥ التي بين الفتحة والضمة مثل رُوم كما تقول اهل القاهرة خوخ والحركة ٥ التي بين الضمة والكسرة عند الفرنسيس مثل دانُوب فتبدل بحركة عربية تقاربها اما الحركة ٥ التي بين الفتحة والكسرة فلها نظير في العربية في لغة نجد وقيس واسد كما تسمع من القراء تنطق كما في او تبدل بفتحة خالصة والمد بعدها بالف خالصة

واما باشتمال العلم على ما لا تجيزه اصول العربية كالابتداء بساكن وكالانتهاء بواو ساكنة قبلها ضمة وكالانتهاء بواو او ياء بعد حرف مد فيحرك الساكن او يترصل اليه بهمزة

وصل ويحرك احد الساكنين وتقلب الواو والياء الساكنة ياء والضمة قبلها كسرة او تحذف وتقلب الواو او الياء المتطرفة بعد سكنة همزة . وهذا التغيير هو الذي يسمى مثلاً او وضعاً في التوالب العربية . فالعلم موضع اتفاق بين الباحثين ايضاً

والضمائر واسماء الاشارات والاسماء الموصولة كافية بل فيها زيادة عن نظائرها في اللغات الاخرى فلا حاجة للزيادة فيها وانما النزاع في اسم الجنس كما صرح الباحث الاول مراراً

(٧) ثم نقسم اسم الجنس الى ما استعملت له العرب لفظاً سواء وضعته له من عندها او عربته من لغة غيرها والى ما لم تستعمل له لفظاً والاول يقبل ولا ينظر الى اصل اللفظ قبل التعريب لان التعريب جعله في حكم العربي فليس موضع نزاع كالدرهم والدينار والمشكاة والسفنجة والسردار وانما النزاع فيما لم تستعمل له العرب لفظاً

(٨) ثم نقسم ما لم تستعمل له العرب لفظاً الى ما اصطلح المولدون على اطلاق لفظ عربي عليه بأي مناسبة كانت كنسافة وغواصة وبدارة وقطار ولا خلاف بين الباحثين في قبوله . والى ما لم يصطلحوا على اطلاق لفظ عليه للآن ولا خلاف بين الباحثين في انه يجب البحث والتنقيب في كتب اللغة عن لفظ عربي يمكن اطلاقه عليه بأي مناسبة من المناسبات الجائزة في اللغة العربية ويصطلح على دلالته عليه كما اصطلح من قبلنا على لفظ نسافة وغواصة

ولم يقل احد منهما بتعطيل حركات الخطابة والكتابة ودواوين الانشاء وصحف الاخبار في مدة البحث والتنقيب بل لا بد من ملء الفراغ بلفظ اعجمي واستعماله موقتاً للضرورة كما يفعل الطالب الذي ينتقل بالتعليم تدريجاً من لغة العامة الى اللغة الفصحى

فاذا انتفى دور البحث ولم يعثر على كلمة عربية يمكن الاصطلاح عليها وهو ما لا يكون الا نادراً تستعمل الكلمة وتستعمل وحينئذٍ يراها الباحث الاول بالمنظار الذي يرى به المعربات التي سقلتها العرب ويقول قد احتطت وما فرطت فرحباً بالدخيل العتيد . وامداً للاصيل الشريد . ومالي اشغل آماني بنشد ضالة ان جاءت فلا كرامة وان ذهبت فلا شيمتها عمامة . ويراها الباحث الثاني بمنظار آخر غير ما يرى به المعربات فيحسبها كالرقعة في الثوب والحصاة بين الدر ويقول للضرورة احكام . وحبذا لو صحت الاحلام . ووجدت طلبتي في يوم من الايام

هذا هو الخلاف الطريف العريض ضيق البحث حلقاته رويداً حتى تضاءل وانتهى الى تقدير النظر الى الكلمة المجتلبة واستقبالها اما بالترحيب . واما بالتقطيب . وهو خلاف غريب

حفني ناصف